

**مثال شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم
في الثقافة الروسية التقليدية**

إعداد

الشيخ / هبة الله سعيد كامل

مثال شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثقافة

الروسية التقليدية

كعامل فاعل في استمالة الرأي العام الروسي إلى الإعجاب به خصوصاً وبدينه الإسلام عموماً

إن مبادرة رابطة العالم الإسلامي إلى عقد مؤتمر مكة المكرمة السابع تحت عنوان "نصرة نبي الأمة صلى الله عليه وسلم" تستحق التنويه الكامل بحكم حسن الاختيار لموضوعه الذي لا ريب في أن معالجته الممعة أثناء هذا اللقاء واسع التمثيل سيسهم بقسطه البناء والفعال في قضية إجلاء الصورة الصحيحة لشخصية نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم وعرضها على العالم المعاصر أجمع بك جماليتها وروعيتها، كما سيقدم للشعوب المسلمة مزيداً من معرفة مآثره الدينية والدينيوية ويسلحها بالحجج الإضافية المتينة التي من شأنها مد وتقوية جسور الحوار والتفاهم مع كل من يسعى إلى معرفة الحق والمواجهة الحاسمة لمن لا يتخلى عن محاولات تشويه عقيدتنا السمحة ورموزها المقدسة وفي طليعتها من أرسله الله، عز وعلا، (شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) (الأحزاب: ٤٥-٤٦) .

بودنا الإشارة بارتياح بادئ ذي بدء إلى أنه لم يظهر عملياً في روسيا مقلدون لتصرف أصحاب الرسوم الكاريكاتورية الشوهاء باستثناء حالتين وقعتا في مدينتي فولغوغراد وفولوغدا. وأخذاً بعين الاعتبار سعة أرجاء روسيا حيث تصدر يومياً ألاف الأعداد من الجرائد والصحف فإن عمل الجريدتين المحليتين الهزيلتين حتى لا يجوز اعتباره من باب الاستثناء وإنما هو شذوذ عارض. بل وأية قوى سياسية أو اجتماعية جديدة في المجتمع الروسي، ناهيك عن السلطات الروسية الرسمية، لم

تتنصر على الامتناع عن تأييد تلكيا الجريدتين المذكورتين وإنما رفعت ضدتهما مع الاستحسان الجلي من المجتمع دعاوى قضائية داوية كانت نتيجتها إنزال عقوبة صارمة.

وقد اقتضى هذه العاقبة عدد كبير من الأسباب يتميز من بينها قبل كل شيء الانعطاف الجاد في العلاقات ما بين روسيا وعالم الإسلام والذي بدأ عام ٢٠٠٣م في مدينة كوالالمبور -عاصمة ماليزيا- حين أعلن فخامة الرئيس الروسي بوتين بجلاء سعي روسيا للانتماء على هذا الشكل أو ذاك إلى كيان منظمة المؤتمر الإسلامي. واستقبل هذا السعي لدى قسم كبير من الرأي العام العالمي باعتباره مفاجأة. أما بالنسبة إلى العارفين جيداً بأحوال روسيا وتاريخها الطويل عبر القرون فقد كان ذلك عرضاً جديداً من روسيا عن سعيها المتزايد قوة لاستعادة جوهر دورها كدولة متعددة المذهبية وعديدة الإثنية ليس الإسلام فيها مجرد كونه العقيدة الدينية الثانية من حيث تعداد النفوس بعد الديانة المسيحية الأرثوذكسية بل إنه أدى دوراً حاسماً في تطور وازدهار جوانب الحياة فيها كافة دونما استثناء. وبدون قاعدة وطيدة كهذه لم يكن ممكناً أن يسمع من لسان الرئيس الروسي مثل هذه التصريح الذي تجلت فيه -أكثر من الرغبة في تعزيز صلاتها بالعالم الإسلامي رسمياً وحدها- إرادة اتخاذها نهجاً استراتيجياً جديداً وهو ما يتسم بالدلالة والأهمية على نحو خاص كصاحبة حق في هذا الأمر كما تعتقد وتؤكد. ويوضح تلك الأسباب التاريخية العميقة أيضاً واقع أن هذه البلاد الشاسعة ذات تربة قومية لا تصلح بتاتاً وإطلاقاً لزرع البذور السامة لمعاداة الإسلام. وينطرح التساؤل المشروع بم ترتبط خاصية كهذه؟ هل هو مجرد خواص طبيعية لهذه التربة أم ثمة أيضاً شيء ما آخر؟

ما من ريب في أن السمات الطبيعية لهذه التربة بفضل التعاون العميق والعريق على مدى القرون فيما بين شعوب روسيا المتأصلة فيها والتي تعتنق عقائد دينية

شتى وبضمنها بين المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس. ولكن مثل هذه الحالة لا تكتسب مرة واحدة وإلى أبد الآبدين. إنها مثل أية ترة طيبة أخرى تحتاج إلى تعهد دائم من المزارعين. وبدونه قد تكون في أحسن الأحوال بمثابة ماسة غير مصقولة لا معدى لها عن المعالجة الفنية الماهرة الدؤوبة.

وبالطبع فإن المعيشة الحسنة على مدى الأجيال الكثيرة في أراضي روسيا لشعوب شتى هي لها سابقاً ولاحقاً كبيت الأب خلقت نزعة واضحة تماماً نحو تكاملها الإيجابي المتبادل. ويصلح تصويراً مقنعاً دالاً مثال رائع هو مفهوم "الأمانة" الذي دخل مباشرة إلى اللغة الروسية واحتفظ فيها بشكله اللفظي ومغزاه الإسلامي الرائع. واقتباسه المباشر من قبل غير المسلمين في روسيا يعكس كما في بؤرة العدسة اللامة طابع علاقتهم بالمسلمين وذلك التوقير الحقيقي الذي استحقوه عن جدارة بفضل أخلاقهم الرفيعة وطرز حياتهم النموذجي السامي.

ويشهد المثال الوارد على مدى تغلغل الإسلام في الثقافة الروسية وإلى أي حد صار قسماً عضوياً فيها وجزءاً لا يتجزأ عنها ومثل هذه الخاصية الفريدة ونادرة المثال لتلك الثقافة تجلت إلى حد تام في تلك الحقبة التاريخية حين بدأ يتكون ويتطور بشكل عاصف الأدب الروسي المعروف عالمياً والذي يعود إليه بالعرفان الشامل من الجميع دور عظيم في صوغ الوعي الاجتماعي الروسي. ويمكن التأكيد دون الوقوع في تهمة المبالغة على كون الإسلام والمضامين المرتبطة به من المواضيع الرئيسة للأدب الروسي والفكر المجتمعي في روسيا طيلة القرن التاسع عشر مع شمول أوائل القرن العشرين إلى حد الانقلاب الشيوعي البلشفي الهدام لعام ١٩١٧م الذي قطع بشكل فظ تطور روسيا الطبيعي.

وليس ثمة أديب أو مفكر روسي واحد له أهمية وشهرة ما تجاوز باهتمامه موضوع الإسلام واضعاً في محط عنايته عادة الجوانب الروحية - الأخلاقية للمعيشة كما عرضها القرآن المجيد وعبر النموذج الرائع للنبي محمد صلى الله عليه

وسلم نفسه. ويستهل القائمة الطويلة من أسماء أعلام الثقافة الروسية الذين استوحوا الجمالية والعمق في فحوى الأيديولوجية الإسلامية ليس إلا بوشكين العظيم- مؤسس اللغة الروسية المعاصرة والذي استطاع التغلغل على نحو عبقري إلى أعماق الفكرية الإسلامية وقد دخلت إلى الرصيد الذهبي العام للأدب الروسي المجموعة الشعري التي نظمها تحت تأثير الانطباع المباشر عن اطلاعه الممعن الفاحص على الترجمة الروسية لمعاني القرآن الكريم ووضع لها بخط يده عنوانها المعبر وهو "بالوحي من القرآن". وقد تناول موضوع القرآن وهو واقع في أسر جماليته البلاغية وعمقه الروحي الأخلاقي. وفي القرآن الكريم والأسوة العظمى لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه بوسع أي شخص يبحث بصدق عن الحق أن يعثر دوماً على الأجوبة الممنعة لأي أسئلة حيوية لديه. والتعرف على هذه المصادر الهادية العظيمة للحياة وخير الوسائل المثلى لمعالجة الأرواح وشفاء القلوب جعل حتماً رأس الثقافة الروسية في حالة الاستلهام المعجب من معين الإسلام وساعده في أيام التجارب المريرة والشدائد الشاقة على تعزيز روحه المعنوية والامتناع عن الاستسلام تحت ضربات القدر.

بدأ تعرف بوشكين المباشر على الإسلام منذ عام ١٨٢١م أي من فترة إبعاده الأولى من عاصمة روسيا آنذاك (مدينة سانكت بطرسبورغ) إلى مناطق البلاد الجنوبية الإسلامية في جبال القوقاز وشبه جزيرة القرم. وهنا أنشأ بوشكين الذي كان لا يزال يافعاً يافعاً تماماً تحت تأثير الانطباع الساطع للألوان والأوزان الجديدة عليه التي اكتنفته وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم لنمط الحياة الإسلامي مجموعة الأشعار الرومانسية المسماة بـ"القصائد الجنوبية" والمفعمة بروح الميول الصادقة نحو المسلمين، إلا أنه لم يكن قد تغلغل بعد بالشكل الكافي وإلى الحد الكامل في كنه عقائدهم الدينية القائمة على أساس من فكرة التوحيد المطلق التي صيغت في شكلها الناجز الحتامي والنهائي بنص القرآن الكريم.

ومثل هذا التغلغل في الإسلام بالنسبة إلى بوشكين بدأ منذ عام ١٨٢٤م حين أبعده مرة أخرى عن العاصمة الروسية ولكن هذه المرة لا إلى الجنوب وإنما إلى الشمال في ضيعة أسرته بقرية "ميخايلوفسكويه" النائبة والتي وقع فيها في العزلة التامة عن عليية المجتمع الروسي الرفيع التي لم تدرك نزعتة الكبرى نحو البحث عن الحق والعدل ولهذا دفعته عن نفسها بقوة شرسة. وخلال هذه الحقبة العصيبة على بوشكين توجه بشكل مباشر إلى القرآن الشريف. وهو يتحد عن ذلك رأساً في مقطوعة شعرية له قائلاً :

في الكهف الخفي وفي أيام العسف
طالعت صحفات القرآن الرائعة
وإذا بملاك الرحمة والإشفاق قد جاء إليّ
مخلفاً بجناحيه حاملاً لي الطلسم

ومن المهم ذكر أن بوشكين طالع نص القرآن في إحدى ترجماته الروسية المبكرة بقلم فيريوفكين والمطبوعة سنة ١٧٩٥م. وهي ترجمة بعيدة جداً عن الكمال غير أن بوشكين استطاع على الرغم من ذلك التوصل بشكل عجيب إلى إدراك الجمال المعجز لآيات كتاب الله المجيد والتفهم بعمق لتلك الثروة المتناهية لحتواه وفحواه القائمتين على قاعد من فكرة الإسلام المركزية وهي فكرة التوحيد المطلق. وكان التجاء بوشكين إلى القرآن على أية حال طوق الإنقاذ بالمعنى الحرفي لشخصه علماً بأن ذلك لم يقتصر على مساعدته في تذليل الأزمة النفسية المعنوية العميقة جداً التي أخذت بخناقته وكان قد استدعاها الجهل السافر الذي قابلت به العلية الروسية بحوثه الروحية الرفيعة كما أنها أعانتته في إنشاء مجموعة شعرية رائعة سماها "بالوحي من القرآن"، وهي التي لم تضم إلى أعمال هذا الشاعر المختارة فحسب، بل وأدخلت إلى الرصيد الذهبي العام للأدب الروسي بأسره. هذا وصار داعية الإسلام الأعظم صلى الله عليه وسلم يتمثل فيها كبطل

محبوب جداً وكمثال نموذجي للاقتداء والاهتداء. وها هي إليكم أشرطة من المقطوعة الشعرية الأولى لمجموعة "بالوحي من القرآن":

أقسم بالشفع، أقسم بالوتر،

أقسم بالسيف وبالجهاد،

أقسم بنجم الفجر،

أقسم بصلاة المغرب.

كلا! ما ودعك ربك، ثم كلا!

قم! واجعل لك الشجاعة زاداً.

ألم يجعلك حبيبه المفضلاً؟

وأفاء عليك ظله، ثم هدى.

وأخفاك عن كل يد

تريد بك السوء والأذى؟

قم! ولا تبغ النفاق ولا الخداعا.

سر خفيفاً على الصراط المستقيم.

وليكن قلبك شفوفاً على المسكين واليتيم.

قم، وبلغ الناس أجمعين

آيات القرآن الكريم.

وليست مجموعة "بالوحي من القرآن" بالترجمة الحرفية للنص القرآني إلا أن كل من يقرأها يعرف فيها دونما جهد كبير عناصر بعينها تماماً من ذلك النص الرفيع ويدرك مدى الدقة في قراءة بوشكين لمحتواه السماوي ولاسيما في تلك من مواضعه المرتبطة بالمثال البوشكيني للنبي صلى الله عليه وسلم وخدمته المتفانية لله عز وجل:

قم أيها المتردد،

فنور المصباح المقدس
يملاً الغار حتى الصباح.
كن مطمئناً، يا أيها النبي،
وعذ بربك من كآبة الأفكار
ومن أوهام أضغاث الأحلام.
أقم الصلاة طوال الليل في خشوع،
ورتل في الكتاب المنزل ترتيباً.

ولا يخفي بوشكي سعادته من إدراكه أن الله تعالى أنزل وحيه الأخير إلى الناس
على رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم بالذات معبراً بذلك نفسه عن عظمة
رحمته لهم ومنيراً أمامهم الطريق :

بنور هدايته الأعظم
إنه رؤوف رحيم
أنزل القرآن على محمد
وهو النور المبين.
فلنتوجه نحن أيضاً للنور
ولنتنشق عن العيون عتمة الضباب.

ويحاول بوشكين أن يتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم التحمل والصبر
في قضية الذود عن آرائه الصائبة السديدة :

إن الصحف الأولى من الكتاب السماوي كانت
قد أعطيت لك، أيها النبي، ليس عبثاً
فارفع القرآن في صبر وفي هدوء
ولا تكره عليه الفجار.

وكل كلمة وعبارة في مجموعة "بالوحي من القرآن" ذات معنى زاخر. وهي تؤكد إما نصاً أو روحاً بأسلوبها النفس العالية التي تنسجم مع المعاني السماوية للنص القرآني ولهذا يتقبلها القارئ الروسي بهذه العاطفة القلبية داعية إياه على أية حال حرفياً إلى الإسلام. وله دلالاته بهذا الصدد، أنه في سنة ١٨٨٠م أثناء إزاحة الستار عن التمثال الشهير لبوشكين في قلب مدينة موسكو ثمن الكاتب الروسي الأعظم دستويفسكي شخصيته ورأى ضرورياً الاستشهاد من كل نتاجه الإبداعي بأبيات من مجموعة "بالوحي من القرآن" التي نتناولها بالحديث، هي المقطع المستوحى من سورة "عبس" :

سينفخ الملاك مرتين في الصور

فليصعق الرعد السماوي على وجه الأرض

يوم يفر المرء من أخيه

وأمه وأبيه.

لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه.

وجوه يومئذ عليها غبرة

ترهقها قفرة.

أولئك هم الكفرة الفجرة.

"أفليس هذا أحد المسلمين؟ أفليس هذا هو روح القرآن الكريم نفسه؟.." طرح دستويفسكي هذا الاستفهام المجازي البلاغي على نفسه وعلى مستمعيه. والمعتقد هو أن بوشكين لو لم يكن قد قتل في المباراة وهو في عامه السابع والثلاثين وعاش أكثر فلربما لم يكن هذا التساؤل ليبقى مجازياً بلاغياً وليس من المستبعد أنه لكان سيعطي الرد عليه بالإيجاب..

وعن بوشكين يقال في روسيا : "إن بوشكين هو كل ما لدينا". والشخص الروسي منذ نعومة أظفاره وحين يذهب إلى روضة الأطفال وعلى مدى أعوام

تعليمه المدرسي يتربى حتماً على أشعار ابن روسيا الأعظم هذا. ولعل الشخص
الروسي يستشهد بمقتطفات من مؤلفات بوشكين أكثر من جميع الكتاب الروس
الآخرين مجتمعين. وبوشكين محاط في روسيا بالمعنى الحرفي لهذا التعبير بهالة
التقديس. وكل ما ارتضاه واستحق ثناءه يتقبله الروس باعتباره شيئاً ما قريباً إلى
القلب وحببياً إلى الفؤاد وعزيزاً على النفس. أما ما رفضه وأباه وما لم يتقبله ولم
ينل رضاه أو من باب أولى إذا كان قد أدانه وأنكره ونفاه فإنه لن يجد مطلقاً
طريقه إلى أفئدتهم. وها نحن قد بلغنا هنا إلى الجواب على السؤال : لماذا في بلاد
مترامية الأطراف عديدة الملايين من النفوس كروسيا لم يعثر الدنماركيون
أصحاب الرسوم الكاركاتورية إياها على أحد ممن يتبعهم في تصرفهم وبقوا في
الواقع بلا أتباع إلا اثنين شاذين، بل وأثاروا على أنفسهم السخط العام والعام
والازدراء والاحتقار من الجميع.

ولا يبقى سوى إبداء الأسف على أنه لم يكن لدى الشعب الدنماركي، وعلى
فكره، ولدى بعض الشعوب الغربية الأخرى مثل لبوشكين. ولو كان لديهم
بوشكين إذن لكانت تربتهم الثقافية كذلك شأنها شأن التربة الثقافية الروسية غير
صالحة بتاتاً وإطلاقاً لكي تزرع فيها البذور السامة لمعاداة الإسلام.

د. سعيد هبة الله كامل

مدير معهد الحضارة الإسلامية بموسكو

عضو عامل لمؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي

عضو المجلس الأعلى للتربية والثقافة لدى الإيسيسكو